الباب السادس

ديكنز وكتاباته

فى ربيع عام ١٨٤١ فكر ديكنز فى القيام برحلة الى امريكا وقد حاول المؤرخون الاهتداء للسبب الذى دعا المؤلف القيام بهذه المهمة فتعددت الشائعات. ولكن السبب الرئيسى كان رغبة المؤلف فى زيارة عالم جديد محرر من تقاليد الملكية وتباين الطبقات . سافر ديكنز تاركاً أولاده فى رعاية صديق له بعد أن اتفق مع شابمان وهول على أن يكتب لهما كتاباً يصف فيه رحلته إلى أمريكا . وبعد رحلة شاقة لم يكن يتوقعها وصل ديكنز إلى هاليفاكس حيث قوبل بترحاب عظيم وقد سر للاستقبال الرائع فكتب لفورستر يقول : انى أتمنى لو كنت ترى الجماهير وهى تهتف فى الشارع للرجل الذى لا يستطيع أحد أن يقلده . وفى بوسطون التى كانت فى عام ١٨٤٢ المركز الثقافى للولايات المتحدة كان الأمريكيون يتجمهرون ويهتفون له هتافات عالية ويرسلون له الخطابات والأشعار، ويقيمون له الحفلات والاجتماعات وذلك لأن شعباً عظيما قرر أن يكرم شاباً أنشأ نفسه بنفسه ، وكان ترحابهم يدل على شعورهم العظيم نحوه . كتب ديكنز لفورستر يقول : إننى أشعر بالفخر والسعادة من جراء ذلك الترحاب العظيم الذى يؤثر فى روحى ويسيطر على مجرى حياتى . وقد كان السبب فى هذا الترحاب كونه مصلحاً اجتماعياً وليس لكونه مؤلفاً شهيراً . ولقد أعلن دانيال وبتر أن ديكنز

عمل على اصلاح حال الفقراء فى انجلترا أكثر من السياسيين الذين كانوا يمثلونها فى البرلمان .

كان ديكنز لا يلاقى إلا ترحابا اينما سار، ولكنه صدم حين وقف يتحدث عن حقوق النشر الدولية فقوبل بعداء . وقد كتب بعدئذ إلى ماكريدى يقول « لما أكنه لك من محبة ... فانى لا أود لك بأن تقضى عاماً فى هذا الجانب من المحيط الأطلنطى ... حرية القول ! أين هى ؟.. إن الأمريكان لا يحتملون سماع أخطائهم .. لو كنت ولدت هنا وكتبت كتبى فى هذه القارة لما صادفت تشجيعاً واقبالا ولمت فقيراً مجهولا وزيادة على ذلك كنت أحسب من الأشقياء » .

زار تشارلس وكيت كثيراً من الولايات المتحدة ولما وصلا إلى كندا قضيا هناك أسبوعاً بجوار مساقط نياجرا . وكانا يتمتعان بحرية شخصية لم يعهداها منذ ذهابهما إلى أمريكا ، وكان الهواء والخضرة تحلو لهما وقد جعلت هذه المناظر توحى للمؤلف ذكرى مارى هوجارث فقال « ماذا كنت أفعل لو كانت الفتاة العزيزة التى ترقد فى كنسال جرين لا تزال على قيد الحياة ترافقنا فى سفرنا هذا ـ ولكنها قد ترددت فى ذاكرتى مرارا ـ منذ أن زال وجهها الجميل عن ناظرى .. »

وأخيراً فى يونيو وصل ديكنز وزوجته إلى لندن وانما برؤية أطفالهما وجورجينا التى كانت تقيم معهما فى ذلك الوقت . وقد كان يخيل لكيت أن وجود جورجينا مع الأطفال يجعل تشارلس يكف عن أحلامه وحديثه عن مارى هوجارث ، تلك الأحلام التى كان يقصها عليها لمدة خمس سنوات. إن جورجينا قد بلغت نفس السن الذى كانت قد بلغته مارى حين كانت تقطن دوتى ستريت وكان وجه التشابه بين مارى وجورجينا كافياً لأن يظن

الانسان أنها ماري. فديكنز كان دائم التفكير في ماري يعتبرها جزءا من قلبه فقد أخذ بعد أسابيع من اقامته في جورجينا معهم يرى روح ماري تشرق عليه كل صباح وأخذ يسترجع الماضي في شخص شقيقتها حتى أنه لم يجد فارقا كبيراً بين الماضي والحاضر. هذا كان له تأثيره في حاضره ومستقبل حياته فانه وجد سلواه في جورجينا وفي الوقت نفسه آخر بعد مضي أعوام يتضايق من كيت إلى أن تم انفصاله عنها ...

قضى شارلس ديكنز شهر اغسطس من نفس العام وهو يكتب «المذكرات الامريكية» وقد أعجب ماريت مؤلف معاصر وصديق لديكنز بالكتاب وبالطريقة المسرحة التي عالج بها ديكنز مواضيع كتابه. وأما ثاكري فلم يستحسن الكتاب ورفض أن يكتب عنه تقريظاً طلب منه وفي هذا السفر يصف المؤلف رحلته فصلا فصلا، وكل ما رآه من محاسن واخطاء فهو كتاب مختص بزيارات الى معاهد عامة يقارنها بالمعاهد التي تقابلها في انجلترا. لقد اظهر إعجابه بتلك المعاهد، وأظهر أن الإحسان الذي كان يقوم به الشعب نفسه كان منفصلا عن الإحسان الخاص، كما أنه يبين في كتابه أن الاطفال الذين يعيشون على ذلك الإحسان لا يرتدون إشارات ملابس خاصة موحدة كما يحدث في السجون مثلا. وانه إذا قارن هؤلاء بالاطفال المماثلين لهم في انجلترا، فان شخصياتهم كانت تحمل طابعها الخاص. كما أنه كان يوجد ملاجيء للمعتوهين، ومعاهد اصلاح وسجون، وملاجيء للصم والبكم ولكنه عندما اكتشف أن تجارة الرقيق كانت لا تزال قائمة غضب وثار لوجود هذه التجارة المرذولة في بلد حر.

« مارتن شزلويت »

« مارتن شزلويت » رواية ظهرت عام ١٨٤٣ - ١٨٤٤ - تدور حوادثها حول مارتن شزلويت العجوز الثرى الذى يفقد ثقته فى عائلته ، اعتقاداً منه أنهم يطمعون فى ثروته ، فيتبنى مارى جراهام فتاة يتيمة فقدت أبويها فيقوم بتربيتها . يحب مارتن الشاب مارى ولكن جده لم يكن يأتمنه لظنه انه كان محباً لذاته فيرسله ليدرس عند قريب له يدعى المستر بيكسنيف ، معمارى له شخصية مزدوجة تسبب طرد مارتن من منزله . فيترك بدون نقود فيأخذه مارك تولى معه الى أمريكا ليجرب حظه . فيسافر وهناك يضيع كل ما كان عنده من نقود ويتعرض للموت بالحمى ولكنه ينجو من المرض ويرجع مارتن الى انجلترا بعد أن يكون قد أصلح من نفسه . فى ذلك الوقت يكون جده ومارى جراهام قد سكنا منزل بيكسنيف ووضع نفسه تحت تصرفه فيكتشف دناءه بيكسنيف الذى يحاول أن يجعل مارى تقبله زوجاً فيفشل فيدينه مارتن شزلويت وحين يرجع مارتن الصغير يزوجه بمارى .

ومع الموضوع الاصلى قصة أخرى صغيرة وهى « أعمال جوناس شزلويت » ابن انتونى شزلويت أخ مارتن العجوز . وكان جوناس هـــذا ذو أخلاق شريرة لا يستطيع الانسان أن يقبلها . فانه يقتـل أباه ويتزوج من ميرسى ابنة بيكسنيف ويعاملها معاملة قاسية ثم يقتل مدير شركة التأمين الذى خدعها واتخذ معها سياسة التهديد فيكشف الجريمة فيتناول جرعة من السم فيموت والكتاب بجانب تصوير ديكنز الماهر يحتوى على كثير من الشخصيات المحبوبة .

نشر ديكنز هذه الرواية فى عشرين عدداً كما أنه أدخل أمريكا فى كتابه فقد اختار مارتن شزلويت وأرسله إلى أمريكا ، وبذلك يقدمنا لشخصيات

تمثل الطابع الامريكى كما احتوت رواياته الأخرى على أشخاص يمثلون الطابع الانجليزى . لقد أعطى المؤلف مارتن حرية التعبير عن الأشياء التى رآها المؤلف ولم يستطع أن يفوه بها بصراحة ، وحين قرأ سدنى سميث الكتاب كتب لديكنز يقول « لقد سررت بالعدد الأول من كتابك الجديد . إن بيكسنيف وبناته وبنش فى غاية الكمال حقاً لقد سموت بوصفهم وصفاً لا يدانيك فيه كاتب أو أديب ! » وتلا زيارة ديكنز لأمريكا زيارة إلى ايطاليا وفرنسا وغيرهما من البلاد فقد أصبح ديكنز يهرع لهذه البلاد رغبة فى الاستجمام من عناء العمل ، كما أنها كانت توسع دائرة فكره وقد كتب كتابا وصف فيه رحلته إلى ايطاليا أسوة برحلته إلى أمريكا ...

« دومبى وابنه »

بعد عامين من كتابة مارتن شزلويت بدأ تشارلس ديكنز كتابة « دومبى وابنه » وهى كغيرها من روايات ديكنز لها موضوع ممتاز. فموضوع هذه الرواية يدور حول الكبرياء . ولمرور زمن كبير على كتاباته نسى ديكنز الكتابة وكان تقدمه بطيئا فذكر فى احدى رسائله مع فورستر «إنك لا تستطيع أن تتصور الصعوبة التى أجدها فى الكتابة الآن» إن كتاباته الكثيرة وكثرة مشاغله جعلته يفقد الخيال الذى بدأ به . فقد قال مرة « إننى احتفظ بقواى التى تبتكر وتخترع على شرط أنه يجب أن تسيطر على حياتى كلها ، وإنها كثيراً ما تملك على جميع مشاعرى وقواى وتملى شروطها وإحيانا تتركنى مدة طويلة وحيداً بدون إلهام » إن طريقة ديكنز فى الكتابة لم تتغير فانه كان يبدأ عمله بأن يجلس على مكتبه بين الساعة العاشرة الى الساعة الثانية يكتب كثيراً أو قليلا . ولكنه لم يكن يترك مكتبه قبل الساعة الثانية .

عندما ألف ديكنز كتابة « دومبي وابنه » كان في بلدة « روزمنت » في سويسرا حيث قضى ستة أشهر . وكان في باريس عندما كتب الفصل الذي يموت فيه بول بن دومبي . وقد كتب الى مس كوتس يقول « إن بول قد مات » لقد مات بول يوم الجمعة في المساء حوالي الساعة العاشرة ولما لم يكن يأمل في أنه يستطيع النوم فقد قضى الليل في شوارع باريس الى أن جاء الصباح . وحين كتب هنري هالام الى مسز بروكفيلد قال لها في خطابه « إن كل انسان يزعم أن موت بول هو أجمل شيء كتب الى الآن ، وقد قال شارلي أحد أبناء ديكنز إني متأكد بأن الأطفال الذين رزق بهم أبي من خياله كانوا حقيقين يمتازون عن أولاده بأنهم أكثر حقيقة أحياناً عما كنا نحن عليه » .

إن رواية « دومبي وابنه » التي ظهرت في عام ١٨٤٧-١٨٤٨ هي رواية يدور موضوعها حول أعمال احدى الشركات . فان المستر دومبي ، الرجل الثري والرئيس المتكبر لشركة الملاحة التابعة لدومبي وابنه يرزق بابن في أول الرواية ولكن زوجه تموت ويضع الأب كل آماله في ابنه الذي كان ضعيف البنية ولكن ذكاءه كان خارقا للعادة إذ كان أكبر من عقلية طفل . يرسل الابن الى مدرسة يديرها الدكتور بلمبو والذي تسبب له الموت من جراء النظام الشديد المتبع هناك . وفي الوقت نفسه يحب دومبي ابنه فيهمل ابنته فلورنس وبعد موت أخيها تزداد شقة التفريق الذي بينها وبين أبيها ثم يحدثنا ديكنز عن والتر جاي وهو شاب في خدمة دومبي له أخلاق حميدة وقلب طيب فيقع في حب فلورنس ولكنه يرسل الى جزر الهند الغربية بوساطة دومبي الذي لا يوافق على صداقتهما . وفي الطريق تغرق الباخرة التي كان عليها ويعتقد الجميع أنه مات غرقاً . بعد ذلك يتزوج دومبي مرة

أخرى من أرملة شابة اسمها اديث جرينجر ولكن معاملته الصعبة تدعوها الى مصادقة كاركر مدير اعمال زوجها الثرير ويهرب الاثنان الى فرنسا. يقوم دومبي بمطاردتهما فيتقابل مع كاركر فى محطة من محطات السكك الحديدية فيقع كاركر تحت عجلات القطار ويقضى عليه . إن الشركة تفشل ويفقد دومبي ثروته وابنه وزوجته . وأما ابنته فتتزوج والتر جاى الذى كان لا يزال على قيد الحياة . بعد ذلك يفقد دومبي كبرياءه ويعيش بمفرده الى أن ترجع اليه فلورنس . ومن ضمن الشخصيات المعروفة فى الكتاب سولومون جلز وصديقه كيتل وجو باجستوك الماجور المتقاعد وفينكس .

« دافيد كوبرفيلد »

رواية « دافيد كوبرفيلد » عبارة عن تقدم كتابة ديكنز . إن عقليته كانت فى طريق التغيير لأنه كان يطمع فى الفن والواقع . كما اراد أن يظهر مقدرته على التأليف كغيره من الكتاب واراد أن يبرهن على مقدرته بسرد الوقائع عارية . لقد رغب ديكنز اشياء كثيرة ولكنها كانت معقولة وقد ضحى بكل شيء من أجل الحقيقة حتى يجدها . كانت فكرة ديكنز فى كتابة دافيد كوبر فيلد أن يسرد تاريخاً حقيقياً لحياته ولكن على طريقته هو وليس على طريقة غيره . لقد ظل طول حياته يجمع الوقائع لكى يكتب تاريخ حياته كرواية وبدون أن تظهر للقراء بأنها قصة حياة مؤلفها . لذا نرى أن مزايا « دافيد كوبر فيلد » العظمى هى انها تسرد الوقائع الحقيقية ولكن بحماس للحق . إنه يصف الوقائع ولكن بقليل من المبالغة ويختلف اشخاص هذه الرواية بأنهم اشخاص حقيقيون . إننا حين نقرأ عن طفولة « دافيد كوبر فيلد » نشعر أنها جزء من طفولتنا كما أن شباب ديكنز

حقيقي من الناحية السيكولوجية ولكن روايته ايضاً تحتوى على شخصيتى المستر والمسز ميكوبر وهما مزيج من الواقع والخيال ولكن بالرغم من ذلك فاننا نشعر اننا عرفناهم طول حياتنا .

حين بدأ ديكنز فى كتابة دومبى وإبنه فانه وجد نفسه أمام مشكلة وهى عدم استطاعته الكتابة . رغم أنه كان يستطيع أن يخلق الشخصيات ويبتكر الموضوعات ولكنه لم يستطع أن يجعل أبطاله يقومون بادوارهم الا اذا أخذهم معه الى لندن . . قد كتب ديكنز يقول : إن يوماً فى لندن يستطيع نقويى وحينئذ ابدأ فى أى كتاب ولكن حين قال المؤلف ذلك نسى أن فى ذلك الوقت بدأت صحته تعتل .

فى كتابه دافيد كوبر فيلد يقول ديكنز « سواء أصبح أنا بطل حياتى أو يحتل هذه المكانة شخص آخر فان هذه الصفحات ستظهر ذلك » إن كل رجل كاتب له حيثية وجب أن يكتب على الاقل كتاباً واحداً . فكتب ديكنز تاريخ حياته وقد حاول أن يكتب ذلك قبلها بعامين ولكن لم يزد المشروع عن بعض المقتطفات التى توجد الآن فى كتاب حياة شارلس ديكنز لفورستر . لقد اراد ديكنز أن يتخلص من ذكريات طفولة مهملة لم يلق فيها عناية من أى شخص وذلك بأن يعبر عنها على صفحات كتابه . إن الانسان حين يكتب عن ألمه فانه يظهر له على الورق غير جدير بأن يشغل باله . ولكن ألم ديكنز كان ألماً حقيقياً فقد مر عليه زمن كانت آلامه قد تركت اثراً شديداً فى نفسه حتى انه حين كان يستعيد تلك الحوادث لكتابتها كان يشعر بالالم وكأنه حديث . لم تكن لديه الشجاعة الكافية لأن يذهب الى مصنع الورنيش حيث كان يعمل كصبى وذلك لأنه كان يذكره بالوحدة الشديدة والحسرة التى شعر بها حينئذاك عندما أهمله والده . ولقد حاول

أن يسرد هـــذه الوقائع فى كتابه بأمانة . وكان يستطيع أن يقول الحق ولكنه لم يستطع أن يكتم غيظه وشعوره المكبوتين . لقد أعطى ما كتبه عن طفولته الى فورستر لكى يستخدمها فى كتابه ولقـــد قرأ بعض ما كتب على كاترين زوجتـــه التى حينما استمعت الى تلك المأساة ، مأساه الطفولة المعذبة، فانها لم تتأثر لألمه بقدر ما تأثرت بما قاله عن والديه وذلك لأنها كانت تعلم أنه من عائلة فقيرة .

ظهرت أعداد الكتاب بين عامى ١٨٤٩ - ١٨٥٠ وقد قال ديكنز عنها « إنه كتابى المفضل دون غيره من الكتب التى كتبتها » وذلك لأنه عبر فيها عن كل ما كان يدور فى خلده .

ولد دافيد كوبر فيلد فى سفوالك بعد موت أبيه . وكانت أمه ســـيدة ضعيفة رقيقة الطبع . تتزوج مرة اخرى ويقوم هو بمساعدة أختـــه على تعذيب السيدة واستعمال الشدة فى معاملتها وفى تربية ابنها مما له أثر فى موتها المبكر . بعد موت أمه يرسل دافيد الى المدرسة حيث يقوم الناظر بمعاملته معاملة قاسية من غير مبرر ولكنه يصادق ستيرفورت وتراولز . يذهب دافيد الى لندن لكى يعمل وهناك يعيش عيشة فقيرة بائسة يتخللها المرح من اتصاله بعائلة المستر ميكوبر . يهرب دافيد من لندن ويذهب الى خالته بتسى تروتوود وهى سيدة عجوز شاذة ويطلب منها المساعدة . ترحب به بتسى وتدعوه للسكنى معها حيث يقابل المستر ديك المجنون . يذهب كوبر فيلد الى كانتربرى لكى يتم تعليمه وحيث يعيش فى منزل محامى خالته وهناك تقوم بنت المحامى المستر ديكفيلد بالتأثير على دافيد تأثيرا بالغاً ثم بعد ذلك يعمل فى دور المحاماة ويقوم فى ذلك الوقت بالاتصال بعائلة مربيته كلارا بيجوتى ويقدم لها ستيرفورت . هذه العائلة عبارة عن المستر بيجوتى صائد

الاسماك وهام واملى الصغيرة التى كانت على وشك أن تتزوج من هام ولكن ستيرفورت يشدد على املى ان تهرب معه وتحدث مأساة وهى غرق ستيرفورت وموت هام حين يحاول أن يخلصه .

فى ذلك الوقت يتزوج كوبر فيلد دورا وهى فتاة جميلة طائشة وينجح فى أن يصبح مؤلفاً شهيراً . تموت دورا بعد أعوام قلائل من زواجها ثم يرى أنه كان خاطئاً فى عدم تقديره جوهرة مثل اجنيز بنت ويكفيلد . كان المستر ويكفيلد يستخدم كاتباً شريراً اسمه برايا هيب فيتسلط عليه ويكاد يقضى على ثروته تحت ستار الخداع ولكن ميكوبر يكتشف سرقته وتزويره وذلك بمساعدة المستر كراديلز المحامى. يحكم القضاء على برايا بالسجن المؤبد وأما دافيد فيتزوج من أجنيز . وآخر منظر فى الكتاب هو سفر المستر بيجوتى مع عائلته الى استراليا لبداية حياة جديدة والأمل يشرق على وجوه الجميع ...